"المُقدِّمات في بعض الكتب القديمة"

كميلة محمد محمود عبدالله

قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

كلية الآداب والعلوم قصر الأخيار/جامعة المرقب

أولاً: المُقَدِّمَة:

تُعدُّ مقدِّمة البحث هي أوَّل ما يقرأه القارئ في البحث، فإنَّ من خلالها يكتسب انطباعه الأوَّل عن البحث ككل، لذا فإنَّ طريقة كتابة مقدِّمة البحث تحتل مكانة مميّزة لما لها من أهميَّة بالغة في مُجمل البحث، وهي الجزء الأكثر صعوبةً في البحث، وتختلف تبعاً لنوع البحث وموضوعه، وتشتمل المقدِّمة في بدايتها على موضوع البحث وماهيَّته قبل البدء بطرح الأسئلة، ووضع الفرضيَّات الخاصَّة به، كما يجب أن تجذب انتباه القارئ لها.

المقدمة حسب تاريخها وجدت منذ القرن الثالث تقريباً في كتب اللُّغة والأدب والنَّقد، ونستدلُّ على ذلك بقول الجاحظ في كتابه "الحيوان" يبيّن فيه قيمة مقدمته حيث يقول: "إنّ مُقدِّمتي مرتبة، وطبقات معانيه منزلة". الحيوان، للجاحظ، ج10/1.

وأمَّا في القرن الرابع فاستعملت فيه وأُشير إليها في مُقدِّمات الكتب، ومن هذه المقدِّمات: قول الآمدي في أثناء حديثه عمّا أخرجه أبو الضِّياء بشر بن يحيى من معاني أبي تمَّام: "أدخل في هذا الباب ما ليس منه بعد أن قدَّم مقدِّمة افتتح بها كلامه فقال: "ينبغي لمن نظر في هذا الكتاب أن لا يعجل بأن يقول: "هذا مأخوذ من هذا، حتى يتأمل المعنى دون اللَّفظ، ويعمل الفكر فيما خفي ...". الموازنة، للآمدي، ج325/1.

وقول الجرجاني في الوساطة للمتنبي يقول: "وهذه الطريقة أحد ما نعي على أبي الطَّيِّب، وسنقول فيها وفي غيرها إذا استوفينا هذه المقدِّمة". الوساطة، للجرجاني، ص: 23 ، والأمثلة على ذلك كثيرة، بمعنى أنَّ المقدِّمة شاع استعمالها بعد القرن الرابع، والشواهد عليها كثيرة أكثر من أن تعد أو تحصى. بناء المقدمات في كتب النقد العربي، فائزة علي ثابت، ص: 32

تعريف المقدّمة.

المقدمة لغةً واصطلاحاً.

المقدمة في اللغة:

تأتي دائماً بفتح الدّال أو كسرها، يقال "مقدَمَةً"، وهي تعني عدة معانٍ منها: هي أول كل الشيء، يقال: مقدِمة بكسر الدال: يعني كل شيء أوله، ويقال مُقدَّم بفتح الدال يعني: كل شيء نقيض مؤخره، ويقال أيضاً: من الرّحل.

يقال أيضاً مُقدّمة: أوّله، ومن الجيش طائفة منه تسير أمامَه، ومنه يقال: مُقدّمة الكتاب، ومقدمة الكلام، وما استقبلك عن الجبهة والجبين. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص: 746

فالمقدمة بهذه التعريفات قدمت في معاجم اللغة العربية منذ قرون، وبالتحديد القرن الثاني الهجري إلى أن ورد في معجم ابن منظور لسان العرب، لابن منظور، مادة: قدم معنى المقدمة، وقد استعير مما سبق إلى أول بيان الذي يكتب في بداية الكتاب، وكذلك ورد في معجم الوسيط لمجمع اللغة العربية.

المقدمة في معناها الاصطلاحي:

المقدمة: تعني مدخل كل شيء كما سبق بها القدماء من الكُتّاب، أمّا استخدامها في الكتب فهي لفظة مستعارة، فمقدم الكتاب يعني مدخله الذي يستهل به المؤلف في كتابه أو في مقاله الأدبي أو العلمي، منها يستعرض الكاتب مضمون الكتاب أو مقالته، ويربط النص بالعنوان، والمقدمة يتدرج إليها بيان الفوائد الموجودة في الكتاب أو في المقالة.

يقول الجرجاني: مقدّمة الكتاب ما يذكر فيه قبل الشروع في المقصود. التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، ص: 291

أنواع المقدمة أو بدائلها:

للمقدمة أنواع أو بدائل تسمى بها ويقصد بها "المقدمة"، وإن اختلفت الألفاظ وهي: التوطئة – خطبة الكتاب.

1- التوطئة:

من ذلك قول الآمدي في كتاب أبي الضياء بشر بن يحيى قال: "فجعل هذه المقدمة توطئة لما اعتمده فيها من الإطالة والشرح". الموازنة، للآمدي، ج325/1

وكذلك قول الجرجاني في كتاب "الوساطة": "وإنّما قدّمنا هذا البند توطئةً لما نذكره على أثره، وتدريجياً إلى ما بعده؛ ليكون كالشاهد المقبول قوله، وبمنزلة المسلم أمره". الوساطة، للجرجاني، ص: 48 .

2- خطبة الكتاب:

وذلك مثل قول الثعالبي في أثناء ترجمته للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني قال: "وأنا أكتب من خطبة كتاب القاضي في تهذيب التاريخ فصلين". يتيمة الدهر، للثعالبي، ج7/4

وقول البطليوسي: "غرضي في كتابي هذا تفسير خطبة الكتاب الموسوم بأدب الكُتّاب ...، وقد قسمته ثلاثة أجزاء" الجزء الأول في شرح الخطبة". الاقتضاب في شرح أدب الكاتب، للبطليوسي، ص: 27، 28

العنوان والمقدمة: تعدد العنوان مع ذكره أو عدمه في المقدمة

تعريف العنوان: هو الذي يكشف لنا مضمون المقدمة، وهو الذي يكون كالطريقة أو كالهدف للبحث عن الحقائق الموجودة في المقدمة أو المتن، فالعنوان هو رأس الأمر لذا يعرف من خلاله الكتاب؛ لأنّ أركان الكتابة ثلاثة: العنوان – والمقدمة – والمتن، فالعنوان هو مفتاح الكتاب ووظيفته تكمن في أنّ العنوان يرد في المقدمة، والمقدمة تنظم النص أو المتن، وتجعل المتن في سلك مفهوم، فتبيّن علاقة العنوان بالمتن، ونضرب أمثلة من كتب التراث بعضها ذكرت العنوان في المقدمة، وبعضها الآخر لم تذكره، وندرس كلا الفريقين دراسة نقدية متواضعة.

أولاً– كتاب الصولي: ذكر في كتاب "أدب الكاتب" العنوان في مقدمته، حيث يقول: "وهذا الكتاب هو المستحق أن يسمى أدب الكاتب على الإيجاب لا على الاستعارة، وعلى التحصيل لا على التمثيل". أدب الكاتب، للصولي، ص: 20

فالصولي شدّد في كتابه أن يلتزم الكاتب بتوريد العنوان في المقدمة وإلاّ يعتبر أنّه يكذب في كتابه، حيث يقول: "فإنّي رأيت من صنف مثل هذا الكتاب، ونسبه هذه النسبة، ولم يحصل له منه إلاّ تسميته دون تجسيمه، وتعميمه دون إيضاحه، وتقريبه من المعنى الذي ألبسه إيّاه ونسبه إليه". أدب الكاتب، للصولي، ص: 20

ثانياً– ثم يلي هذا الكتاب كتاب ابن عبد ربّه، ويقول: "سميت كتابي "العقد الفريد" وذلك لما فيه من مختلف جواهر الكلام، مع دقة السلك وحسن النظام". العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ص: 7

وبيّن معنى العقد الفريد، العقد يعني اعتماده على جميع المصادر القديمة لم تشر إلى نعته بالفريد، وبذلك عدّ هذا النعت من زيادات المتأخرين، ومن الباحثين من تعذر عليه الجزم، وخاصةً أنّ كلمة الفريد موجودة في كل مخطوطات الكتاب. دراسة في مصادر الأدب، الطاهر أحمد مكي، ص: 284

أمّا الفريد: يعني أنّ كل حبات العقد مختصة بشيءٍ مختلف عن الأخرى، وهذه الحبات اختصت بالشمولية لكل أنواع المعارف.

ثالثاً– كتاب الحاتمي: من أشهر الكتب التي تعددت عناوينها، على الرغم من ذكره لاسم رسالته في مقدمته، حيث قال: "وأنا اسم هذه الرسالة بالموضحة تشبيهاً بالموضحة من السجاج". الرسالة الموضحة، للحاتمي، ص: 4

وذكر أنّ رسالته كانت تعرف باسم جبهة الأدب، ومع ذلك فإنّ الرسالة عرفت باسم ثالث هو الرسالة الحاتمية، وهذا الذي لم يشر إليه في كتابه.

تعدد العنوان مع ذكره في المقدمة منها على سبيل المثال:

أولاً– طبقات الشعراء، لابن سلام الجمحي:

وهو من أشهر الكتب الذي دار الخلاف حول عنوانه الصحيح، فذهب بعض المحققين منهم الشيخ محمود شاكر، حيث جعل العنوان: "طبقات فحول الشعراء"؛ لأنّه رأى أنّ هذا العنوان هو الصحيح؛ وذلك لعدة أسباب:

أ- لأنّ اسم طبقات الشعراء لا يطابق لعدم استيفاء ذكر الشعراء، بل كان مدداً معلوماً للجاهليين، وكذلك الإسلاميين، وعدد أصحاب المراثي، وكذلك أيضاً شعراء القرى وشعراء اليهود. طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، ج137/1

ب- ومن الأسباب أنّه جعل في ترجمة عبيد بن الأبرص بأنّه شاعر فحل من شعراء الجاهلية، وجعله في الطبقة الرابعة من فحول الجاهلية. طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، ج137/1

ج- ومنها أيضاً أنّ ابن سلاّم حدّد العدد في كتابه، حيث يقول: "فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعراً ...". طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، ج138/1

ثانياً- كتاب الجاحظ "البيان والتبيان":

هذا الكتاب لم يذكر عنوانه صراحةً في المقدمة فاعتبر "البيان والتبيين" أو "البيان والتبيُن".

اختلاف الآراء حول حقيقة اسم كتاب الجاحظ "البيان والتبيين":

هناك آراء مختلفة من العلماء والكُتّاب العرب والعجم حول هذا الاسم:

1) مجموعة ترى أنّ الاسم هو البيان والتبيُن: وهم المستشرق كليمان هيوار، والدكتور بدوي طبانة، والدكتور ميشال عاصي، وذلك عندما وجد هذا الاسم في بعض النسخ كالمخطوطة.

2) المجموعة الثانية هم: الدكتور الطاهر أحمد مكي، والشيخ عبد السلام محمد هارون، وهم مجموعة معارضة للمجموعة الأولى، ويرون أنّه لا فرق بين كون اسمه البيان والتبيين أو البيان والتبيُن بضم الياء.

إبهام العنوان في المقدمة:

هناك كتب وردت فيها العناوين في المقدمة مبهمة ومن هذه الكتب:

1) كتاب "أخبار أبو تمام" للصولي: يقول في المقدمة: "إليه التي أتبعها أخبار أبي تمام كاملة في جميع فنونه". أخبار أبوتمام، للصولي، ص: 4 – 5

ويقول أيضاً: "وابتدأت في عمل أخبار جرير، فبلغني أنّ قوماً تضمنوا عملها على شريطتي خلافاً عليّ، وكياداً لي، فأمسكت عن إتمامها امتحاناً لصدقهم فمات بعض وبقي آخرون". أخبار أبوتمام، للصولي، ص: 12

فنلاحظ أنّه طرح عنوان كتابه، ثم ذكر عناوين الكتب التي ألّفها أو أراد تأليفها.

2) كتاب "الحيوان" للجاحظ: عنوان الكتاب محصوراً في الحيوان رغم أنّ المقدمة أشار فيها إلى أكثر من ذلك، ليعطي الموضوعات الأخرى أكثر أهمية، وهذا لا يدل على جهله في عنوانه ومقدمته، بل الصحيح أنّه كان مقلاً في الاقتراب منه،

فنجد أنّ لب اهتمامه وتركيزه كان في الحيوان؛ لأنّه الموضوع الأساسي بالنسبة له، فهذا الكتاب مبهم وغير واضح وشامل لكل المعلومات الأساسية الموجودة فيه.

فالجاحظ أدرك ذلك في قوله حينما يصف كتابه: "كتاب معناه أنبه من اسمه، وحقيقته آنق من لفظه". الحيوان، للجاحظ، ج10/1

وبهذا نفهم أنّه لم يؤتِ الكتاب حقّه بهذا الاسم، وبأنّه أكثر من ذلك في حقيقته ومحتواه.

الكتب التي التزمت متونها بالمقدمة أو زيدت في المتن أو في المقدمة أو في كلاهما:

1- التزام المتن بالمقدمة: دائماً يكون الباحث قد سلك مسلكاً واحداً من العنوان، فالمقدمة فالنص فالخاتمة، ومن هذه الكتب:

أ- الموشح، للمرزباني: فموضوع الكتاب كما يذكر صاحبه في مقدمته هو "ذكر عيوب الشعراء التي نبّه عليها أهل العلم، وأوضحوا الغلط في كل من: اللحن – الإسناد – الإبطاء – الإقواء – الإكفاء – التضمين – الكسر – الإحالة – التناقض- اختلاف اللفظ – هلهلة النسيج.

وغير ذلك من سائر ما عيب على الشعراء قديمهم ومحدّثيهم في شعرهم أو أشعارهم، خاصةً نجد أنّ المتن وافق المقدمة. الموشح، للمرزباني، ص: 1

2- التزام المتن بالمقدمة مع الزيادة في المتن: ومن الكتب التي التزم متنها بمقدمتها: كتاب الكامل للمبرد، حيث زيد في المتن شيئاً لم يذكره في المقدمة فيقول في المقدمة: "هذا الكتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلامٍ منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة، ورسالة بليغة، والنية فيه أن نفسّر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافياً، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً، ومن أن يرجع إلى أحدٍ في تفسيره مستغنياً". الكامل، للمبرد، ج5/1

فكلام المبرد في المقدمة جاء شاملاً لموضوعات الكتاب ومحتواه، ولكنه جاء بالغرائب في المتن، منها حديثه عن الرياح، فقد تحدث عن أسمائها، وصفاتها، ومواقعها، ويستشهد على ذلك بأبيات من الشعر، ويتكلم في المتن عن البلاغة، ويعرض باباً واسعاً للتشبيه، ويرد فيه أقوال العلماء القدماء والمحدثين، ويبدي رأيه في ذلك كما تكلم عن الكناية فجعلها ثلاثة أضرب: التعمية، والتغطية، والرغبة عن اللفظ الخسيس المفحس إلى ما يدل على معناه من غيره، والتفخيم، والتعظيم. ينظر: الكامل، للمبرد، ج215/2

ويخصص في الكتاب نصيب للتاريخ، حيث يذكر الخوارج وتاريخهم وأشعارهم، فهذا زيادة في المتن ما لم يذكره في المقدمة.

3- التزام المتن بالمقدمة مع الزيادة في المقدمة: وتمثل لهذا العنوان كتاب ابن قتيبة "الشعر والشعراء"، حيث يقول في مقدمته: "هذا كتاب ألّفته في الشعراء أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم، وقبائلهم وأسماء آبائهم،

ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم، وعمّا يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون". الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ج59/1

فابن قتيبة في بعض مقالاته التي في المقدمة تتعلق بالأدب والغريب والنحو والتأويل والسُنّة وبعض شواهدها وأصحابها غير معروفين. بناء المقدمات، ص: 56

4- التزام المتن بالمقدمة مع الزيادة في كليهما معاً: نضرب مثلاً لهذا العنوان أيضاً كتاب الجاحظ (الحيوان)، فإنّ مقدمته غنيّة وكذلك متنه، وهذا ليس بغريب عن عالم كالجاحظ، حيث وضّح في المقدمة بما فيه الكفاية لدى البسطاء، ثم بادر في المتن الذي لا غنىً عنه لأهميته، فقد تناول الجاحظ أموراً كثيرة مرتبطة بالكتابة والكتب، فذكر أقوالاً لبعض العلماء في فضل الكتاب، منها سمعه من الحسن اللؤلؤي حيث قال: "غبرت أربعين عاماً ما قلتُ ولا بتُّ ولا اتكأتُ إلاّ والكتاب موضوع على صدري". الحيوان، للجاحظ، ج52/1، 53

ونبّه فيه أنّ العلم لا يحصل للإنسان إلاّ بالسماع، ولكن لابدّ أن تكون كتب المرء أكثر من سماعه.

كما يعرض لحرص الزنادقة على تحسين كتبهم فقال: "إنّ إنفاق الزنادقة على تحصيل الكتب، كإنفاق النصارى على البيع". الحيوان، للجاحظ، ج56/1

وقد وصف كتبهم بأنّه ليس فيها: "مثل سائر، ولا خبر طريف، ولا صنعة أدب، ولا حكمة غريبة، ولا فلسفة، ولا مسألة كلامية، ولا تعريف صناعة". الحيوان، للجاحظ، ج57/1

ويلي ذلك كلامه في الشعر العربي:

يقول: "حديث الميلاد، صغير السن، أول من نهج سبيله، وسهّل الطريق إليه، امرؤ القيس بن حجر، ومهلهل بن ربيعة، ...، فإذا استظهرنا الشعر، وجدنا له – إلى أن جاء الله بالإسلام – خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام". الحيوان، للجاحظ، ج74/1

وتعرض الجاحظ أيضاً إلى المآثر، فبيّن أنّ العرب اعتمدوا في ذلك على الشعر، وأمّا العجم فقد اعتمدوا على البُنْيَان.

وراح يتكلم عن أساليب الخطاب، وهو قوله في الإيجاز والإسهاب، فقال: "ورأينا الله – تبارك وتعالى – إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مُخْرَجَ الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم، جعله مبسوطاً، وزاد في الكلام". الحيوان، للجاحظ، ج94/1

هذا في الإيجاز، أمّا في الإسهاب فقال: "ووجدنا الناس إذا خطبوا في صُلْحٍ بين العشائر أطالوا، وإذا أنشدوا الشعر بين السِّماطين في مدحِ الملوك أطالوا، وللإطالة موضوع، وليس ذلك بخللٍ، وللإقلال موضوع، وليس ذلك من عجز". الحيوان، للجاحظ، ج92/1، 93

ثم يبيّن الجاحظ ماهية الإيجاز ويعرفه بقوله: "الإيجاز يعنى به قلة عدد الحروف واللفظ". الحيوان، للجاحظ، ج91/1

وذكر بأنّ صحار العبدي عَرَّف الإيجاز بقوله: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ. الحيوان، للجاحظ، ج90/1، 91

ثم ننتقل إلى المقدمات المتصلة بالمتون والمنفصلة عنها:

المقدمة لها علاقة قوية بالمتن، فمن المقدمة نعرف اتجاه الباحث في المتن، ومدى تسلسل الأفكار في المتن، إلاّ أنّنا نجد بعض الكتب خالية من المقدمة التي تعرفها أصحاب المناهج وطرق البحث، ومن أشهر هذه الكتب: كتاب الجاحظ المسمّى "البيان والتبيين".

في الجزء الأول من كتابه اقتصر بمقدمة ضمنية، أمّا في الجزء الثاني وسّع ولم يدخل في المتن مباشرةً بل جاء بالمقدمة قائلاً: "والحمد لله ربّ العالمين، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله، وصلّ الله على محمدٍ خاصة، وعلى أنبيائه عامة، أردنا أبقاك الله أن نبتدئ صدر هذا الجزء الثاني من البيان والتبيين بالرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب وملوكهم". البيان والتبيين، للجاحظ، ج5/2

وذكر في الجزء الثالث نبذة نسميها مدخل أو مقدمة؛ لأنّه بدأ بشيءٍ قبل الدخول في المتن مباشرةً، فقال: "هذا أبقاك الله الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين، وما شابه ذلك من غرر الأحاديث، وشاكله من عيون الخطب، ومن الفقر المستحسنة، والنتف المستخرجة، والمقطعات المتخيرة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة، والجوابات المنتخبة، ونبدأ على اسم الله تعالى بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية وبمطاعنهم على خطباء العرب بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفّى، والمنثور الذي لم يقف، وبالأرجاز عند المِنْح، وعند مجاثاة الخصم، وساعة المشاولة، وفي نفس المجادلة والمحاورة". البيان والتبيين، للجاحظ، ج5/3، 6

وممّا يشبه ذلك أيضاً كتاب عيار الشعر لابن طباطبا، لكن ابن طباطبا يختلف عن الجاحظ، حيث نرى أنّه وصل المقدمة بالمتن والخاتمة أيضاً، ولم يفصل الخاتمة عن المتن، فيرى بعض النقاد أنّ المقدمة تشمل الحديث عن عيار الشعر ولا يبدأ به. تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، محمد زغلول سلام، ص: 172

ومن هنا فمقدمة البيان والتبيين وعيار الشعر من حيث الاتصال واحدة، مع أنّ البيان والتبيين مقصر في مقدمته، لكن أخذت مضمون المتن، وعيار الشعر كذلك، إلاّ أنّه وصل الخاتمة بالمتن وأشار بانتهائها في المتن.

أنواع الخطاب في المقدمة:

الخطاب في المقدمة من أهم وأصعب ما يسعى إليه الباحث أو الكاتب لصياغة المقدمة؛ ليوصل المعنى لدى القارئ أو السامع بالمتعة والتسلسل، فهناك أنواع من الخطاب في المقدمة منها الخطابة السردية والجوابية والتوثيقية والحوارية.

فالخطابة السردية تعني: الخطاب الذي يحيل فيه الكاتب على ما قد قاله وفعله أو على ما يود قوله وفعله، أمّا الخطابة الجوابية: هي تزخير المقدمة التي يجيب فيها المؤلف على ما طلب منه، ويسيطر على هذا النوع من الخطاب نغمة التودّد والتلطّف، فالمؤلف يلعب دوراً مهماً وينفذ المطلوب، ويعد هذا النوع من الخطاب موجوداً في كثيرٍ من مقدمات الكتب النقدية وغير النقدية.

ومن أمثلة هذا الخطاب ما جاء في مقدمة ابن طباطبا العلوي في عيار الشِّعر، حيث قال: "فهمت حاطك الله ما سألت أن أصفه لك في علم الشِّعر، والسبب الذي يتوصل إلى نظمه، وتقريب ذلك على فهمك، والتأنِّي لتيسير ما عسر منه عليك، وأنا مُبَيِّنٌ ما سألت عنه، وفاتح ما استغلق عليك منه إن شاء الله تعالى". عيار الشعر، لابن طباطبا العلوي، ص: 5

وأُمَثِّل للخطاب السردي وهو متنوع من ناحية الضمائر ومن ناحية الانفراد في الكلام أو تجميعه، ونعمم في هذا النوع من الخطاب وذلك لعدم الإطالة فيه، ونجد أنّ هناك خطاباً في الزمن الماضي، وهذا يتضمن صيغ عدة، فيه خطابات التزام كاتبوها خطاب المتكلم المفرد مع استعمال صيغة النفي، ونمثل لذلك كتاب (المؤتلف والمختلف) للآمدي، حيث يقول: "هذا كتاب ذكرت فيه المؤتلف والمختلف والمتقارب في اللفظ والمعنى والمتشابه الحروف في الكتابة من أسماء الشعراء وأسماء آبائهم وأمّهاتهم وألقابهم، ممّا يفصل بين الشكل والنقط واختلاف الأبنية، وإنّما ذكرت من الأسماء والألقاب ما كانت له نباهة وغرابة، وكان قليلاً في تسميتهم وتلقيبهم، وكانوا إذا ذكروه مفرداً من اسم الأب والقبيلة لشهرته". المؤتلف والمختلف، للآمدي، ص: 3

وهناك كُتّاب التزموا صيغة الجماعة مع استعمال النفي: ومن هؤلاء الكُتّاب عبد الله بن المعتز في كتابه (البديع)، حيث يقول فيه: "قد قدّمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن ...، وقد أسقطنا من كتابنا هذا أسانيد الأحاديث ...، ولم نذكر إلاّ حديثاً مشهوراً، ولعلَّ بعض من قصّر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدثه نفسه وتمنّيه مشاركتنا في فضيلته فيسمى فنّاً من فنون البديع بغير ما سمّيناه به، أو يزيد في الباب من أبوابه كلاماً منثوراً، أو يفسّر شعراً لم نفسّره ...". البديع، لعبد الله بن المعتز، ص: 5 – 7

فالمقدمة تعطي الباحث أو السامع مدى ثقة المؤلف بنفسه، إلاّ أنّنا نرى بعض العلماء في علم المنهج وطرق البحث لا يستحسنون هذا النوع من الضمير المتكلم، أي (صيغة الجماعة) بل يفضّلون دائماً ضمير المفرد المتكلم، ويبينون ذلك أنّ الشاعر يتحمل مسؤولية كل ما يصدر منه في هذا الكتاب.

أمّا الكُتّاب الذين استعملوا أسلوب النفي في خطابهم داخل المقدمة ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء فيقول: "هذا كتاب ألّفته في الشعراء، وأخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم، وأخبرتُ فيه عن أقسام الشعر وطبقاته". الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ج59/1

فنجده في هذه القطعة يتكلم بصيغة المفرد، ولكن نجده في موضع آخر يتكلم بصيغة الجمع فيقول: " فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه". الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ج63/1

وهناك بعض الكُتّاب كتبوا بصيغة المفرد والمضارع مثل ابن وكيع في كتابه (المنصف)، فيقول: "وسأدل أولاً على استعمال القدماء والمحدثين أخذ المعاني والألفاظ، ثم أعود إلى تنخل شعر أبي الطيب ومعانيه وإثبات ما أجد فيه من مسروقات قوافيه ...، وسأنصفه في كل ذلك". المنصف، لابن وكيع التنيسي، ج100/1-101

في هذه القطعة استعمل ابن وكيع صيغة المضارع مع المفرد، فيتوهّم القارئ مثلاً أنّه كان يقصد المستقبل منه وليس الماضي، ومن ذلك قوله: "فما استحقه على قائله سلّمته إليه، وما قصّر فيه لم أدع التنبيه عليه". المنصف، لابن وكيع، ج101/1

وممّا جاء بصيغة الماضي أو المضارع والجمع قول ابن سلام في كتابه (طبقات فحول الشعراء)، حيث نجده يقول: "ذكرنا العرب وأشعارها ...، فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله علم ...، فبدأنا بالشعر ...، ففضلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام فنزلناهم منازلهم، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجّة، وما قال فيه العلماء، ...، فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعراً، فألّفنا من تشابه به شعره منهم إلى نظرائه فوجدناهم عشر طبقات". طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، ج24/1

في هذه القطعة اتّبع ابن سلام أسلوب الجماعة مع الماضي حتى آخر هذا النص، ثمّ بعد ذلك غيّر أسلوبه إلى المضارع فقال: "وسنسوق في اختلافهم واتّفاقهم، ونسمّي الأربعة ونذكر الحجة لكل واحدٍ منهم، ...، ونذكر من شعرهم الأبيات التي تكون في الحديث والمعنى". طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، ج50/1

أشهر المقدمات اختلاطاً وتنويعاً:

بعض الكتب لها مقدمات مختلطة جداً، ومن أشهر هذه المقدمات مقدمة كتاب (الأغاني) لأبي فرج الأصفهاني، حيث نجده أتى في مقدمته بصيغٍ عدّة، مرّة بصيغة الغائب، ومرّة بصيغة الجماعة، ومرّة بصيغة متفرقة، فمن حديثه بصيغة الغائب قوله: "هذا كتاب ألّفه علي بن الحسين بن محمد القرشي الكاتب لمعروف بالأصبهاني، وجمع فيه ما حضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية قديمها وحديثها، ونسب كل ما ذكره منها إلى قائل شعره". الأغاني، لأبي فرج الأصفهاني، ج1/1

ويقول بصيغة الجماعة: "أنّا لما جعلنا ابتداءه الثلاثة الأصوات المختارة كان شعراؤها من المتأخرين". الأغاني، لأبي فرج الأصفهاني، ج3/1

ويقول في صيغ متفرقة: "أنّ ذلك لو لم يكن كما ذكرنا يخلُ فيها – إذا أتينا بغناء رجلٍ وأخباره وما صنف إسحاق وغيره – من أن نأتي بكل ما أتي به المصنفون والرواة، ...، وفي هذا نقص ما شرطناه من إلغاء الحشو، أو أن نأتي ببعض ذلك فينسب الكتاب إلى قصور عن مدى غيره، وكذلك تجري أخبار الشعراء، فلو أتينا بما غُنِّيَ به في شعر شاعر، ...، وإذا كان هكذا، فما رتبناه أحلى ...، والذي ضمّناه إيّاه ... وكل ما ذكرنا فيه ...". الأغاني، للأصفهاني، ج1/1

فنجد الأصفهاني يغيّب نفسه بأسلوب الغائب، ثم بأسلوب المتكلم الجماعي، ثم بأسلوب المتفرقة، فهو يتحول من المجهول إلى المعلوم، ومن خطاب الفرد إلى خطاب الجماعة، وزيّن المقدمة بأخبارٍ وقصص وأشعار وأغاني وغير ذلك ممّا هو جيد وجميل، ولم ينس أن يتحدث عن نفسه المفردة فقال: "والذي بعثني على تأليفه أنّ رئيساً من رؤسائنا كلّفني جمعه له، ...". الأغاني، للأصفهاني، ج4/1

ثم هناك أيضاً الخطاب التوثيقي: وهو خطاب أصله يشبه الخطاب الجوابي الذي يتحول إلى وثيقة ذات قيمة في تفسير الظواهر والمفاهيم والفنون، والأمثلة في الخطاب التوثيقي نادرة إلاّ في مقدمة كتاب (أخبار أبي تمّام) للصولي، ويكفي قولنا فيه أنّ رسالته جعلها رسالة مهداة إلى مزاحم بن فاتك، وهي في الوقت نفسه إجابة لطلبه وتلبيةً لرغبته، غير أنّ صيغة الطلب لم تكن صريحة في حين كانت إجابته إيّاه صادرة عن طيب خاطر، بل حاول الصولي أن يجيب مزاحماً إجابة مرضية تتعدّى المصرّح به إلى المسكوت عنه من أسئلة لم ينطق بها لسانه، وهذا ما حمل الصولي على أن يطلب من مزاحم أن يكلفه بما يريد، حيث قال: "ثم أرتني عين الرأي بقية في نفسك منه لم يطلعها لي لسانك إمّا كراهة منك لتعبي في شغلي ...، فسألتك إبانته وتكليفي جميع ما تريد منه". أخبار أبو تمام، للصولي، ص: 5

والخطاب الأخير هو الخطاب الحواري: وهو خطاب في شكل حوار، يقصد الكاتب منه إبراز معلومات أو طريقة ما أو اتجاه ما، أو يقصد فيه مناصرة فئة على فئة، ونمثّل لذلك بكتاب الآمدي في محاورته بين أنصار أبي تمام وأنصار البحتري، فيقول: "وأن ابتدئ بذكر ما سمعته من احتجاج كل فرقة من أصحاب هذين الشاعرين على الفرقة الأخرى". الموازنة، للآمدي، ج7/1

وختاماً ...

نجد أنّ المقدمة مهمة جداً من حيث هي مبدأ كل شيء، وخاصةً في كتب النقد أو كتب التراث، وهذا يعرفنا بأنّ العلماء القدامى قد سلكوا طرقاً لتوسيع معارفهم، واتّبعوا أساليب مختلفة تختلف عن أسلوبنا الحالي، وهذا عامل الزمن، حيث نرى أنّ كل واحد منهم سلك منهجاً في بحثه يختلف عن غيره؛ لأنّهم هم الأوائل الذين بذلوا جهداً لنشر العلوم العربية والإسلامية.

المصادر والمراجع

1- **أخبار أبو تمام**، للصولي، تح: خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

2- **أدب الكاتب**، للصولي، تح: محمد بهجة الأثري، المكتبة السلفية بمصر، 1341 هـ.

3- **الأغاني**، لأبي الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1652م.

4- **الاقتضاب في شرح أدب الكاتب**، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، تح: مصطفى السقا، حامد عبد الحميد، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996م.

5- **البديع**، لعبد الله بن المعتز، دار الكتاب للتراث العربي،

6- **بناء المقدمات في كتب النقد العربي القديم حتى نهاية القرن الرابع الهجري**، لفائز علي ثابت.

7- **البيان والتبيين، للجاحظ**، تح: عبد السلام هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة.

8- **تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري**، محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية.

9- **التعريفات**، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـ.

10- **الحيوان**، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ط2، 1965م.

11- **دراسة في مصادر الأدب**، الطاهر أحمد مكي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط8، 1999م.

12- **الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره**، لأبي علي محمد بن الحسن الحاتمي، تح: محمد يوسف نجم، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1965م.

13- **الشعر والشعراء**، لابن قتيبة الدينوري، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر.

14- **طبقات فحول الشعراء**، لابن سلام الجمحي، تح: محمود شاكر، دار المدني، جدة.

15- **العقد الفريد**، لابن عبد ربه، تح: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983م.

16- **عيار الشعراء**، لابن طباطبا العلوي، تح: عبد العزيز بن ناصر المانع، دار العلوم، الرياض، 1985م.

17- **الكافل في اللغة والأدب**، للمبرد، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، 1997م.

18- **لسان العرب**، لابن منظور، دار الحديث، القاهرة، 2013م.

19- **المؤتلف والمختلف**، للآمدي، تح: عبد الستار أحمد فراج، دار الكتب العربية، 1961م.

20- **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدملية، مصر، 2011م.

21- **المنصف**، لابن وكيع التنيسي، تح: عمر خليفة بن إدريس، جامعة قاريونس، بنغازي، ط1، 1994م.

22- **الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري**، لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، 1961م.

23- **الموشح**، لأبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني.

24- **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت.

25- **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، لأبي منصور الثعالبي النيسابوري، تح: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م.